ألقربان

محمود درويش

هيَّا... تَقدّمْ أنتَ وحدَكَ، أَنتَ وَحْدَكَ.
حولَكَ الكُهَّانُ ينتظرون أَمرَ الله، فاصعَدْ
أَيُّها القربان نحو المذبح الحجريِّ، يا كبشَ
الفداءِ – فدائنا ... واصعدْ قويّا

لَكَ حُبُّنا ، وغناؤنا المبحوحُ في
الصحراء : هات الماءَ من غَبَش السراب ،
وأَيقظ الموتى ! فَفي دَمكَ الجوابُ ، ونحن
لم نقتُلْكَ ... لم نَقْتُلْ نبَيّا /

/ إلاّ لنَمْتَحِنَ القيامةَ ، فامتحنّا أَنتَ
في هذا الهَبَاء المعدنيِّ . ومُتْ لتعرفَ
كم نُحبُّكَ ... كم نُحبُّكَ ! مُتْ لنعرف
كيف يسقط قلبُكَ الملآن ، فوق دعائنا ،
رُطَباً جَنِيّا.

لَكَ صُورةُ المعنى . فلا ترجع إلى
أَعضاء جسمكَ . واترك اسمَكَ في الصدى
صفةً لشيء ما . وكُنْ أَيقونةً للحائرين ،
وزَينةً للساهرين ، وكُنْ شهيداً شاهداً ،
طَلْقَ الـمُحيّا

فبأيِّ آلاءٍ نكذِّبُ ؟ من يُطَهِّرنا

سواكَ ؟ ومن يحرِّرُنا سواك ؟ وقد
وُلدتَ نيابةً عنَّا هناك . وُلدْتَ من نور
ومَن نار . وكُنَّا نحن نجّارِينَ مَوْهُوبينَ في
صُنْع الصليب ، فخُذْ صليبَكَ وارتفعْ
فوق الثُريّا

سنقولُ : لم نُخطئْ ، ولم نُخْطئْ . إذا
لم يهطُل المَطَرُ انتَظرناهُ ، وضَحَّيْنا بجسمكَ
مَرَّةً أخرَى . فلا قربانَ غيرك ، يا حبيب
الله ، يا ابنَ شقائق النعمان . كَمْ مِنْ
مرّةٍ ستعودُ حيّا !

هيّا ، تقدَّمْ أَنت وحدك ، يا استعارَتَنا
الوحيدةَ فوق هاوية الغنائيِّين . نحن الفارغين
النائمين على ظهور الخيل ... نسألكَ الوفاءَ ،
فكُنْ وفيّاً للسُلاَلة والرسالة . كُنْ وفيّاً
للأساطير الجميلَة ، كُن وفيّا !

وبأيِّ آلاء نكذِّبُ ؟ والكواكبُ في
يديك . فكُن إشارَتنا الأخيرةَ . كُنْ عبارتَنا
الأَخيرةَ في حُطام الأَبجديّة «لم نَزَلْ
نحيا ، وَلَوْ موتى» . على دَمكَ اتَّكَلْنا .
دُلَّنا ، وأَضِئْ لنا دَمَكَ الزكيّاَ !

لم يعتذر أَحَدٌ لجرحك . كُلُّنا قُلْنا
لروما : «لم نكن مَعَهُ» . وأَسْلمناكَ للجلاّد .
فاصفحْ عن خيانتنا الصغيرةِ ، يا أَخانا
في الرضاعة . لم نكن ندري بِما يجري .
فكُنْ سمحاً رَضِيّا

سَنُصَدِّقُ الرؤيا ونؤمنُ بالزواج الفذِّ
بين الروح والجَسَد المقدّس . كُلّ ورد
الأرض لا يكفي لعرَشك . خَفّت الأرضُ ،
استدارتْ ، ثم طارتْ كالحمامةَ في سمائكَ –

يا ذبيحتنا الأنيقة . فاحترِقْ لتضيئنا ، ولتنبثقْ
نجماً قَصِيّا

أَعلى وأَعلى . لَسْتَ منّا إن نزلتَ
وقُلْتَ : «لي جَسَدٌ يُعَذِّبني على خشب
الصليب» . فإن نَطَقْتَ ... أَفَقْتَ ، وانكشفَتْ
حقيقتُنا . فكُنْ حُلْماً لنحلم . لا تكُنْ بَشَراً
ولا شجراً . وكُنْ لُغْزاً عصيّا

كُنْ هَمْزَةَ الوَصْل الخفيفة بين آلهة
السماء وبيننا . قد تمطر السُحُبُ العقيمةُ
من نوافذ حَرْفك العالي . وكن نور البشارة ،
واكتب الرؤيا على باب المغارة ، واهْدِنا
درباً سويّا

وليحتفلْ بكَ كُلُّ ما يَخْضَرُّ ، منْ
شَجَر ومَنْ حَجَر ، ومن أَشياءَ تنساها
الفراشَةُ فوق قارِعة الزمان قصيدةً ...
وليحتفلْ بكَ كُلُّ مَنْ لم يمتلكْ ذكرى ،
ولا قمراً بهيّا

لا تَنْكَسِرْ ! لا تنتصرْ . كُنْ بَيْنَ –
بَيْنَ مُعَلَّقاً . فإذا انكسَرْتَ كَسَرْتَنا . وإذا
انتصرتَ كَسَرْتَنَا ، وهَدَمْتَ هَيْكَلنا . إذنْ ،
كن مَيِّتاً – حياً ، وحيّاً – ميتاً ، ليواصِلَ
الكُهَّانُ مهنَتَهُمْ . وكُنْ طيفاً خَفِيّا

ولتَبْقَ وحدك عالياً . لا يلمسُ الزَمَنُ
الثقيلُ مجالَكَ الحيويَّ . فاصعَدْ ما استطعتَ ،
فأنتَ أجملُنا شهيداً . كُن بعيداً ما استطعتَ
لكي نرى في الوحي ظلَّك أُرجوانيَّ الخريطةِ .
فالسلامُ عليك يَوْمَ وُلِدْتَ في بلد السلام ،
ويَوْمَ مُتَّ ، ويَوْمَ تُبْعَثُ من ظلام الموت
حيّا !